بلجراد: مفتاح أوروبا

لقد تبلورت صفة "الدولة الغازية" -التي اتّصفت بها الدولة العثمانيـة- في عهد السـلطان "محمد الثانـي" أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ولقي سقوط مركز الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وآخر قلعـة مـن قلاع النصرانية في الشـرق؛ أصداءً واسـعةً في أوروبا ووجّه البابا "نيقولا الخامس" دعوةً لجمهوريّات إيطاليا للاتّحاد، وناشد جميـع النصارى التجمّـع تحت الراية الصليبيّة، وقد أظهر كلٌّ مـن الإمبراطـور "فريدريك الثالث" وملك نابولي "ألفونسـو الخامـس (*V. Alphonso*)" رغبـةً شـديدةً فـي قيادة هـذه الحملة الصليبيّـة، وعُقد مجلـس الإمبراطورية في مدينة "ريجنسـبورج (*Regensburg*)" الألمانيّـة، وطـرح أطرافُه للنقاش مسـألتي عقد اتّفاق سلامٍ عام في جميـع ممالك العالم النصرانيّ لمدة خمسة أعوام، وإرسال أسطول حربي إلى مضيق الدردنيل.

ونمَـت هـذه المسـتجدات إلـى مسـامـع السـلطان محمـد الفاتـح، فبادر إلى التصرّف بسـرعة، ووقّـع اتفاقية مـع جمهورية البندقية التي اعتقد أنها من الممكن أن تقود حملة صليبيّةً جديدةً ضدّ دولته، وسـمح لها بممارسة الأنشطة التجارية في الأراضي

العثمانية، وكان السلطان يهدف من وراء توقيع هذه الاتفاقية -في الوقت نفسه- إلى إنعاش الوضع الاقتصاديّ في دولته، وقد منحت هذه الاتفاقية البندقيّين ضمانًا لحماية مصالحهم ومكاسبهم التجاريّة في الشرق، كما امتنعوا عن الانضمام إلى الفريق الداعي لإعلان الحرب على العثمانيين، ومن ناحيةٍ أخرى، وافقَ حكّام البندقيّة على بنود المعاهدة التي منحهم إيّاها السلطان الفاتح، وأجبروا مستعمراتهم المطلّة على "البحر الأسود" وبحر "إِيجَه" على توقيع الاتفاقيّات مع الدولة العثمانيّة.

حدّد السلطان فاتح أهدافه بعد فتح القسطنطينية على النحو التالي: السيطرة بالكامل على كلّ المناطق الممتدّة غربًا حتى نهر الدانوب، وإيجاد حلٍّ جذريٍّ لقضيّة صربيا، ذلك لأنهم كانوا على يقينٍ من أنَّ بسطَ النفوذ على أراضي صربيا سيمنحهم الأفضلية في مواجهة منافسيهم المجريّين الأقوياء في الغرب.

وكان حاكم الصرب "جورج برانكوفيتش (*George Brankoviç*)" قد تحالفَ مع المجريّين ضدّ الدولة العثمانيّة، واستطاع الاستيلاء على القلاع الحدوديّة بعد صعود السلطان الفاتح إلى عرش الدولة عام (١٤٥١م)، فهمّ هذا الأخير لشنِّ حملتين عسكريّتَين ضدّ حاكم صربيا عامي (١٤٥٤-١٤٥٥م)، الأمر الذي اضطرّ "برانكوفيتش" إلى طلب السلام، ووقّع الطرفان اتّفاقيّةً أقرّ حاكم صربيا بموجبها الامتناع عن التحالف مع المجر، وتعهّد بدفع خراجٍ سنويٍّ بقيمة ثلاثين ألف قطعة ذهبية، وإرسال عدد معيّن من جنود دولته للانضمام للقوات العثمانية وقت الغزوات، كما كان متّبعًا في السابق.

ولقد لعبت محاولات المجريين لتحويل الصرب من المذهب الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي، دورًا فعالًا في إعراض الصرب عن المجر، وبقائهم على الحياد في الصراع القائم ضدّ العثمانيين.

فكّر السلطان الفاتح في ضرورة انتزاع بلجراد من أيدي المجريّين حتى يتمكّن من البقاء في أراضي صربيا، ولهذا خرج في غزوة عام (١٤٥٦م) على رأس جيش قوامه نحو ثمانين ألف جنديّ وعدد كبير من المدافع، وسيّر أسطولًا بحريًّا صغيرًا مكوّنًا من مائتي سفينة من "جَكْ دِري (*Çektiri*)"[١٣] من البحر الأسود إلى نهر الدانوب، ليتقدّم بعدها شمالًا نحو بلجراد وكانت قلعة المدينة قد بُنيت في منطقةٍ وعرةٍ تتّخذ شكل شبه الجزيرة وتقع عند نقطة التقاء نهري الدانوب وسافا، كما أن برجَها وهيكلَها مُحصّنٌ للغاية، فيما أُحيط طرفها المطلّ على اليابسة بالخنادق العريضة الممتلئة بالمياه، فبادر السلطان إلى تنفيذ الخطّة ذاتها التي اتّبعها عندما حاصر القسطنطينيّة، فسيّر بعضًا من سفن أسطوله على اليابسةِ لتنزلَ إلى مياه نهر "سافا"، وبدأتِ القوّات العثمانيّة قصف القلعة من كلّ اتّجاهٍ، وبينما بدأت آمال من كان داخل القلعة تتلاشى في الصمود أمام الهجوم العثماني، انتشرت أنباء تتحدّث عن تقدُّم جيشٍ مجريٍّ قوامه ستون ألف جندي بقيادة "يانوش هونيادي" على الجهة المقابلة من نهر الدانوب، ووقعت معركة استمرّت خمس ساعات في نهر الدانوب وانتهت بانتصار الأسطول المجري على نظيره العثماني، بعد ذلك عبرت القوّات المجريّة النهر إلى الضفّة المقابلة واشتبكت مع الجنود العثمانيين أمام قلعة بلجراد

(١٣) الاسم العام الذي أطلق على كافة السفن الشراعية التي تسير بالمجداف، ولها تسعة عشر نوعًا حسب أحجامها وأشكالها (صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ٨٦).

فـي معركة عنيفةٍ، وسـارت المعركـة في مصلحة المجريّين، وشـنّ القائد المجـري هجومًـا على مقرّ قيادة الجيش العثمانـي، وهو الأمر الذي دفـع بعـض الـوزراء للاقتراح على السـلطان الفاتح بالانسـحاب، فـرد عليهم السلطان بقوله:

''الإعـراضُ عـن العدوّ وعـدم مواجهته هو علامـة الهزيمة، الحمد لله أنا أثق تمام الثقة في قول النبي ﷺ "**الحقّ يَعْلُو ولَا يُعْلَى عليه**" يجب أن يكون العدوّ هو من يهرب وليس نحن''.

ومن ثمّ ساق جواده نحو صفوف الأعداء بشجاعةٍ كبيرةٍ يمكن اعتبارها تهـوّرًا أو حتـى فقدانًـا للوعي، ويروي المـؤرخ "ابن كمال" أن السـلطان أُصيب بجروح في جبهته وسـاقه بينما قتل ثلاثة جنودٍ من الأعداء بسـيفه، وبمـرور الوقت بدأ الجنـود العثمانيّون بإعادة تنظيم أنفسِـهم، ثمّ وصلت وحـداتٌ جديدةٌ مـن المغاوير، ما دفـع القوات المجريّـة للتقهقرِ ودخول القلعة، وقد أُصيب القائد العام للجيش المجري "يانوش هونيادي" بجروح بالغـةٍ في هـذه المعركة، ثم مات بعد ذلك متأثّـرًا بجراحه، وعقد مجلس الحـرب العثمانـيّ اجتماعًـا جديدًا في مسـاء ذلك اليوم الذي شـهد حربًا ضروسًـا جسّـدت مشـاهد يوم القيامة، وصدر قرار بالانسـحاب والعودة لعـدّة مـن الأسـباب التـي كان مـن بينها وقوع خسـائر كبيـرة في صفوف الجيش، ونقص المدافـع والسـفن والذخيرة، وظهور بوادر طول الحصار لفترةٍ طويلةٍ.

أحيـا هـذا الفشـل الجزئي الـذي وقعت فيـه الدولة العثمانيـة الآمال الصليبيّـة فـي أوروبـا مـن جديـد، فأرسـل البابـا "كاليسـتوس الثالـث

(*III. Calixtus*)" (١٤٥٥-١٤٥٨م) أسطوله إلى بحر "إيجَه" عام (١٤٥٧م)، وأخذ يبحث عن فرصةٍ لتوقيع معاهدة مع قائد قبيلة "آقْ قُيونْلُو" "أُوزُونْ حسن" والجورجيّين، وبعد وفاته، تولى مكانه البابا "بيوس الثاني (*II. Pius*)" (١٤٥٨-١٤٦٤م) الذي كان مشهورًا بكراهيته للأتراك، فعقد اجتماعًا ودعا الدول النصرانية لحضوره من أجل التخطيط لحملة صليبيّة جديدةٍ.

أراد السلطان محمد الفاتح أن يجد حلًّا جذريًّا لمسألة صربيا التي تشغل باله، بالرغم من كافّة التطوّرات المقلقة في العالم النصرانيّ، وقد عرض السلطان قضيّة الإرث في صربيا عقب وفاة "جورج برانكوفيتش" وابنه "لازار (*Lazar*)"، وكان المجريّون يرغبون في تزويج ابنة حاكم صربيا المتوفّى بملك البوسنى الكاثوليكي، ومن ثمّ إخضاعه لحماية المجر، كما أنهم تخلّصوا من "ميخائيل أنجيلوفيتش" هو شقيق الصدر الأعظم العثماني "محمود باشا" وكان ينتهج بعض السياسات الضاغطة من أجل تحقيق المصالح العثمانية.

وكانت عائلة "أنجيلوس (*Angelos*)" -التي ينتمي إليها "محمود باشا"- واحدةً من أبرز العائلات وأكثرها اعتبارًا في مملكة صربيا، إلى جانب عائلة "كانتاككوزينوس (*Kantakuzenos*)"، وقد جُلب "محمود باشا" إلى القصر العثمانيّ بعد أن ألحق إلى فرق "الإنكشارية" في سنٍّ صغيرةٍ، واستقرّ به المقام فيه، واعتنق الإسلام، ونشأت بينه وبين السلطان محمد الفاتح صداقةٌ حميمةٌ عندما كان أميرًا، وعقب فتح القسطنطينية عيّن السلطان الفاتح "محمود باشا" أوّلًا في منصب أمير أمراء الروملي

مكان "جَانْدَرْلِي خليل باشا"، ثمّ في منصب الصدر الأعظم، وأما شقيقه "ميخائيل أنجيلوفيتش" فقد ارتقى في مناصب الدولة في صربيا حتى وصل إلى مرتبةِ الحاكم العام التي تُعتبر أعلى رتبة قضائية في صربيا، وكان يتصرّف هناك وكأنه رئيسًا للوبي العثماني في صربيا، وظلّ يكافح الأطراف المضادّة للعثمانيّين كالبابا والمجر، وكان شعب صربيا قد ضاق ذرعًا بالسياسات التي يتّبعها بعض النبلاء المجريّين لدعمهم الطائفة الكاثوليكية، ولهذا التفّوا حول "ميخائيل أنجيلوفيتش" وأظهروا تأييدَهم للإدارة العثمانية، وقد عمد المجريّون إلى اعتقال "أنجيلوفيتش" وحبسه، ذلك في الوقت الذي كان السلطان الفاتح قد أوكلَ مهمّة الاهتمام بأمر صربيا إلى وزيره الأعظم "محمود باشا"، وقد أولى هذا الأخير اهتمامًا لهذه القضية على مدار عامين كاملين، كما خرج في غزوتين إلى صربيا عامي (١٤٥٧ و١٤٥٨م).

دخلت "البُوسْنَة" و"صِرْبِيَا" تحت تأثير السيطرة المجريّة مع زواج ملك "البُوسْنَة" "ستيفان (*Stefan*)" بابنة ملك صربيا بتاريخ الأوّل من مايو/ أيار عام (١٤٥٩م)، وقد اعترض عدد من النبلاء الصرب على تنصيب بوسني كاثوليكي ملكًا على بلادهم، فعرضوا تسليم صربيا على الدولة العثمانية، وتحرّك السلطان محمد الفاتح بناءً على هذه التطوّرات على رأس جيشٍ إلى صربيا حيث استقبله الشعب والنبلاء هناك بترحيبٍ كبيرٍ، وقدّموا إليه مفاتيح قلعة "سيمنديرا (*Semendire*)" التي تعتبر بمنزلة مفاتيح الدولة، وقَدَّمت عقب ذلك قلاع "فيشسلاف (*Vişeslav*)" و"تشروف (*Çernov*)" و"بالاستينا (*Balastena*)" فروض الطاعة والولاء

للدولة العثمانية، واكتسبت صربيا بعد فتحها كاملةً تشكيلًا إداريًّا جديدًا تحت مسمّى ولاية "سيمنديرا"، وقد لعبت قلعة "سيمنديرا" دور القاعدة العسكريّة للقوّات العثمانيّة خلال الهجمات التي شنتها على المجر والاعتداءات القادمة من الشمال، منذ ذلك الحين حتى فتح بلجراد من قبل جيش السلطان "سليمان القانوني" عام (١٥٢١م).

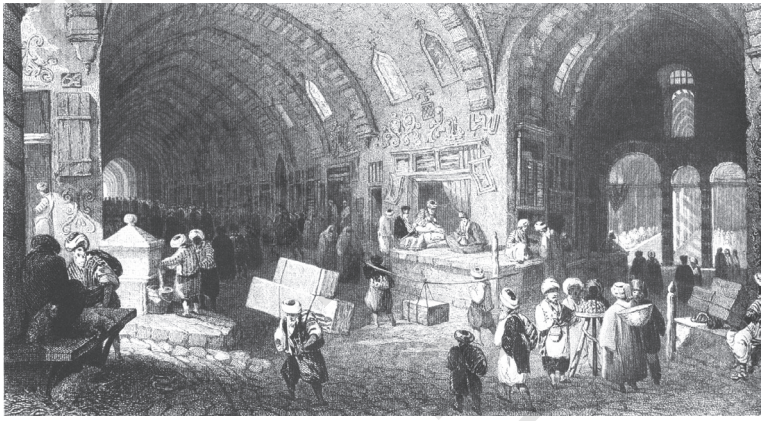

السوق المغطى من أوقاف "أيا صوفيا"

وقد أدهشت واقعةُ سقوط قلعة "سيمنديرا" في أيدي العثمانيّين حكّامَ أوروبا بقدر ما أدهشهم سقوط القسطنطينية في أيديهم قبل ذلك، وفي الوقت الذي وصفت فيه بعض المصادر الغربية تسليم المدينة إلى العثمانيين دون أدنى مدافعة بـ"الفضيحة"، تغاضت عن معرفة الأسباب الحقيقة الكامنة وراء تلك الواقعة، بيد أن الشعب الصربي آثر الدخول تحت حكم الدولة العثمانية التي أقرّت لهم حرّيّة العقيدة، وذلك رغبةً منهم في الحفاظ على هويتهم وثقافتهم في مواجهة مساعي البابا والمجريّين الذين أرادوا إثناءهم عن مذهبهم وإجبارهم بالقوة على اعتناق المذهب

الكاثوليكي، وفي الواقع لم يتعرّض الصرب إلى أيّة محاولات لتحويلهم عن دينهم أو عقيدتهم أو ازدراء لغتهم وصهرهم في المجتمع التركيّ طيلة أربعة قرون ظلّوا خلالها تحت حكم الدولة العثمانية حتى انفصالهم عنها بموجب "معاهدة برلين" التي وقعت عام (١٨٧٨م).

obeikandl.com

فتح الأراضي الألبانية

كانت ألبانيا قد خضعت لحكم الدولة العثمانية عام (١٤٢١م) في عهد السلطان "مراد الثاني"، غير أنه خلال معركة "نيش" التي دخلها السلطان ذاته عام (١٤٤٣م) ضدّ المجر، انفصل "إسكندر بك" عن الجيش العثماني وفرّ هاربًا إلى بلده ألبانيا، ووحّد نبلاءها تحت اسم "اتحاد لزها (*Lezha*)"، وأعلن العصيان على الدولة العثمانيّة انتقامًا لعائلته وبلده، واختار "إسكندر باشا" رايةً حمراء ترمز إلى ثورته وعليها صورة نسرٍ مزدوج الرأس (عَلَم ألبانيا الحالي)، كما حصل على الدعم والتأييد الكاملين من المجر وملك نابولي، وهو ما جعله بمثابة السلاح الذي حوّله الأوروبيون ليكون في وجه العثمانيّين.

وحاول "إسكندر بك" استغلالَ انشغال العثمانيّين بفتح القسطنطينية في البداية، ثم بقضيّة صربيا، فزاد من هجماته ضدّ الأتراك حتى أرسلت الدولة العثمانيّة وحدة عسكريّة لصدّ هجماته، فنجح في هزيمتها، ثم بعد ذلك حاصر قلعة "بَرَاتْ (*Berat*)" بالتعاون مع قوّات من نابولي، إلا أنه تعرّض لهزيمةٍ نكراء، غير أنه حصل على دعمٍ عسكريٍّ جديدٍ من دول أوروبا،

obeikandl.com

ودخل في معركة انتصر فيها ضدّ القوّات العثمانيّة عند وادي "ألبولينا (*Albulena*)" عام (١٤٥٧م)، وبدأت شهرة "إسكندر بك" تعلو وتزداد في أوروبا بعد هذا النصر، حتى إن البابا كافأه بمنحه ألقابًا خاصّة.

وعقب فترة سلام استمرت حتى عام (١٤٦٣م)، بدأ الإسكندر بالهجوم بعدما شارك في التحالف الصليبيّ الذي قادته البندقيّة، واضطرّ العثمانيّون خلال تلك الفترة العصيبة والمضنية أن يُحاربوا في الغرب ضدّ جمهورية البندقيّة ومملكة المجر وإسكندر بك الذين يتلقّون الدعم من التحالف الصليبي، وفي الشرق ضدّ قبيلة "آقْ قُيُونْلُو" و"بني قَرَمَان"، ولم تستطع الدولة العثمانية الحصول على أيّ نتيجةٍ مؤكّدة من غزواتها على دولة ألبانيا بسبب الحروب التي كانت تخوضها في البحر والشرق والغرب، وفي نهاية المطاف استطاع العثمانيّون بسط نفوذهم على قلعة "إشقودرة" عام (١٤٧٩م)، لتدخلَ ألبانيا بشكلٍ مؤكّدٍ تحت سيطرتهم، وقد خضعت ألبانيا للوحدةِ مع الأراضي العثمانيّة حتى قيام دولة ألبانيا المستقلة عام (١٩١٢م).

فتح شبه جزيرة "بيلوبونيز"

عمد "توماس (*Thomas*)" و"ديميتريوس"، شقيقا " قسطنطين باليولـوج (*Konstantin Paleologos*)" آخـر إمبراطور بيزنطي في شبه جزيرة بيلوبونيز، إلى تقسيم أراضي الدولة فيما بينهما عقب سـقوط القسـطنطينية في أيدي العثمانيين، وكان من الممكن أن يُحدث هذا الشقيقان مشكلة بادعائهما أنهما وارثان للإمبراطورية الرومانية الشرقية، هذا إضافةً إلى أن شبه جزيرة بيلوبونيز تتمتّع بامتلاكها العديد من الموانئ البحريّة الطبيعيّة والقلاع المحصّنة، كما أنها تقـع في موقـع إستراتيجيّ متميّزٍ في بحر "إيجه" والبحر الأبيض.

وبالرغـم من اعتبار حكّام البندقيّـة أن هذه المنطقة تخضـع لنطـاق نفوذهم، فإن السـلطان محمد الفاتـح هو الآخر زعمَ أنه الوريث الشرعيّ للمناطق التي كانت خاضعةً لسيطرةِ الإمبراطور البيزنطيّ، بحكم أنه فاتح القسطنطينية، وأعلن حقّه في السيطرة على شـبه جزيرة بيلوبونيز، وخرج السـلطان في غزوةٍ إلى تلك المنطقة عام (١٤٥٨م) اسـتولى خلالَها على شمال شبه الجزيرة وضمّهـا إلـى حدود ولاية "تيسـيليا"، ومن ثمّ عاد إلـى "أَدِرْنَه"،

obeikandl.com

فاستغلّ "توماس" ذهابَ الجيش العثماني إلى "أَدِرْنَه" وبادر بالحصول على دعم الأوروبّيين وعاد من جديد إلى المنطقة واستقرّ بها.

ولم يكن البابا "بيوس الثاني" يرغب في استقرار العثمانيّين في المنطقة بشكلٍ قاطعٍ، ذلك لأنه كان يرى أن شبهَ جزيرة بيلوبونيز تُعتبر بمنزلة أهمّ قاعدةٍ عسكريّة يمكنهم الانطلاق منها خلال أيّ هجومٍ يشنّونه ضدّ الدولة العثمانيّة، غير أن السلطان محمد الفاتح خرج في غزوةٍ عام (١٤٦٠م) إلى شبه الجزيرة، ونجح في بسط سيطرته على كافّة أرجائها باستثناء نقطتين كانتا تحت سيطرة البندقيّة، وفرّ "توماس" هاربًا إلى إيطاليا، أما أخوه "ديميتريوس" فقد استسلم للعثمانيّين، فأُمر بالإقامة الجبريّة في مدينة "أنز" بعد منحه مبلغ ستين ألف درهم لتلبية احتياجاته المعيشيّة.

وقد أسندت الإدارة العثمانيّة مسؤوليّة حكم بيلوبونيز إلى "زَاغَانُوسْ باشا"، ووُحدت شبه الجزيرة مع "تيسيليا" لتكونا سنجقًا تابعًا لولاية الروملي، وقد أدارت الدولة العثمانيّة تلك المنطقة حتى عام (١٨٢٩م)، لتخرج بعد ذلك مملكة اليونان المستقلّة إلى المشهد التاريخي بتوقيع "معاهدة أَدِرْنَه".

فتح سواحل الأناضول المطلّة على البحر الأسود

كانت مدينة "أماسرا (*Amasra*)" -الواقعة في شبه جزيرةٍ صغيرةٍ تطلّ على ساحل البحر الأسود شمالي الأناضول- واحدةً من المستعمرات التجاريّة الهامّة لجمهورية "جنوة" في الأناضول، وكانت المدينة هادئةً وتنعمُ بالاستقرار، ولا تتأثّرُ كثيرًا بالأحداث في الشرق والغرب، وتمتلك ميناءَين بحريَّين، وكانت تتمتّع بجمالٍ طبيعيٍّ خلّابٍ جعلَها يُطلق عليها لقب "عين عالم" وكان حجم التجارة التي تمرّ عبر ميناء المدينة مرتفعٌ للغاية، وعلى الرغم من ذلك فإن المدينة كانت تشهد أعمالًا غير مشروعة بشكلٍ كبيرٍ، فكان القراصنة ينهبون السفن المارّة من البحر الأسود ويلجؤون لميناء المدينة، كما كان الأسرى الهاربون من الأناضول يذهبون إلى "أماسرا"، ثم ينتقلون على متن السفن إلى الروملي، وبذلك ينقذون أنفسهم من الأسر، وهو ما يعني أن البحّارة الجنويّين كانوا يمارسون دربًا من دروب الاتّجار بالبشر ويجنون أموالًا طائلةً من هذا السبيل.

obeikandl.com

وعقب زيادة عدد الشكاوى الواردة إلى السلطان الفاتح حول هذه المدينة، توجّه بالسؤال إلى وزيره الأعظم قائلًا:

''يا محمود! أين تقع هذه القلعة التي لم يستول عليها آبائي وأجدادي؟''.

فردّ عليه "محمود باشا" بقوله:

''يا سيدي السلطان! إن السبب في عدم فتح هذه القلعة هي حكمة الله ﷻ أن تقوم أنت بفتحها، فالله قد قدّر هذه المشيئة يا مولاي''.

فأجابه السلطان:

''إذًا فعدّ العدّة لنصل إلى هذه المدينة، ونرى ما كان مقدّرًا في علم الله''.

وانطلق أسطول عثماني مكون من مائةٍ وخمسين قطعة بحريّة بقيادة الصدر الأعظم "محمود باشا" إلى البحر الأسود مرورًا بمضيق البوسفور، وأما السلطان محمد الفاتح فقد خرج هو الآخر على رأس جيشٍ برًّا قاصدًا المدينة ذاتها.

وقد واجهت وحدات الجيش العثمانيّ صعوبات جمّة أثناء رحلتها جرّاء مرورها بأراضٍ وعرة وغاباتٍ كثيفةٍ، وعندما وصل الجيش مدينة "بُولُو (*Bolu*)" لم يكن أحد من الجيش يعلم وجهةَ هذه الغزوة، وقد سأل قاضٍ السلطان عن وجهة الغزوة خلال جلسة استشارية عُقدت بينهما، فردّ عليه السلطان بقوله:

''إذا استطاعت شعرةٌ من شعيرات لحيتي أن تطّلِعَ على ما يدور في خَلَدي، لكنت قطعتها وأحرقتها في الحال..''.

ليثبت لنا كيف كان يؤمن إيمانًا صادقًا بأهمّيّة حفظ الأسرار الخاصّة بشؤون الدولة، وكان السلطان يرغب من وراء تنفيذ هذه الخطّة مباغتةَ العدوّ على حين غرّة.

وأما "إسماعيل بك بن إِسْفَنْدِيَارْ (*İsfendiyar*)" فقد كان يظنّ أن الجيش العثمانيّ يسير في طريقه للإغارة عليه، فغادر "قَاسْطَمُونُو (*Kastamonu*)" واحتمى بمدينة "سِينُوبْ (*Sinop*)" المجاورة.

وقد أصاب حصار القوات العثمانية مدينة "أماسرا" برًّا وبحرًا من كان فيها من الجنويّين بالدهشة والحيرة، وحينها أدركوا أنه لا طائلَ من وراء مقاومة العثمانيّين، فسلّموا مفاتيح المدينة إلى السلطان الفاتح، وبعد هذه الواقعة، قام السلطان ببعض التعديلات الإداريّة في المدينة، ومن ثمّ عاد إلى "بورصا" منتشيًا بفرحة الانتصار على عدوّه.

أخذ السلطان الفاتح على عاتقه توحيدَ أراضي الأناضول تحت لواء دولته، وكان يشعر بالضجر الشديد من الموقف العدائيّ الذي كان يتّخذه "إسماعيل بك بن إسفنديار" ضدّ الدولة العثمانية بالقرب من مدينة "سينوب"، ذلك لأن "إسماعيل بك" كان يحاول التحالفَ مع "إمارة بني قَرَمَان" والنصارى من أعداء العثمانيّين.

ورغب السلطان في إنجاز هذه المهمّة دون إراقة الدماء، فحاصر قلعة "سينوب" من البرّ والبحر، وأرسل الصدرَ الأعظمَ "محمود باشا" كرسولٍ إلى المدينة، حيث قال لحاكمها:

> ''لماذا لا تسلّم القلعة إلينا؟ وإلى متى ستظلّ في هذه القلعة تقاومنا؟ لقد سقطت جميع الولايات والموانئ في أيدي السلطان الفاتح، وليس بإمكانك مقاومته، أضف إلى ذلك أن شعب

"سينوب" اعترف بتنصيبنا "قِيزِلْ (*Kızıl*) أحمد بك" حاكمًا على المدينة، وإذا رغبت في قضاء بقيّة عمرك في سعادة وطمأنينةٍ، أنصحك بالدخول في خدمة السلطان".

وعندئذ فكّر "إسماعيل بك" في موقفه العدائيّ ضدّ الدولة العثمانيّة في السابق وقال:

"أخشى أن يقضي السلطان عليّ وعلى أبنائي".

فأجابه "محمود باشا" بقوله:

"حاشا أن يُقدم سلطان على فعلٍ كهذا، فهو ذو عفوٍ وكرم".

فأقنعه بالاستسلام، وبعدها ذهب "إسماعيل بك" للقاء السلطان وتقبيل يده، فاستقبله السلطان وقال له:

"أنت أخي الأكبر، فهل يليق بك أن تقبّل يدي؟"

ثم عانقه، ومنحه أقضية "يَنِي شَهِيرْ (*Yeni Şehir*)" و"يَارْ حِصَارْ (*Yarhisar*)" و"إِينَه جُولْ" ليستفيد من مواردها المالية.

وبقي شقيقه "قيزل أحمد" حاكمًا على "قاسطمونو" لمدّة ثلاثة أشهر، ثم لجأ إلى دولة "قَرَمَان"، ومنها إلى "أُوزُونْ حسن"، وبدأ "إبراهيم بك" -من بني قَرَمَان- بتحريض حاكم قاسطمونو السابق "إسماعيل بك" للقيام بثورةٍ ضدّ الدولة العثمانية، وقال له:

"يا عبد الله! لقد حانت الفرصة للنيل من العثمانيين، فلنتحرّك نحن من جانبنا، وأنا سأساعدك، ومن ناحية أخرى نرسل خطابًا إلى "أُوزُونْ حسن" كي يتحرك هو الآخر ضد الدولة العثمانية لنقضي عليها، فاذهب إلى بلدك وامكث بها".

openkandil.com

فرفض "إسماعيل بك" هذا العرض بقوله:

> ''إن كلامك لا يليق أبدًا بالإسلام ولا بالمسلمين، فهذا يطلقون عليه اسم النفاق، فهو سلطان غازٍ يخرج للجهاد في سبيل الله، وليس من الإسلام في شيءٍ أن نقوم بعرقلته والوقوف في طريقه''.

إن الهدف الذي يسعى السلطان الفاتح إلى تحقيقه الآن هو غزوُ إمبراطور الروم في "طرابزون"، فعقِب استيلاء الجيوش الصليبيّة على القسطنطينية عام (١٢٠٤م)، أسّست أسرة "أنجيلوس" دولةً في شبه جزيرة "بيلوبونيز"، وأسرةُ "لاسكاريس (*Laskaris*)" دولةً في "إِزْنِيكْ"، وسلالةُ "كومنينيون (*Komnenos*)" دولةً في "طرابزون"، وقد استطاع ملك "إزنيك" طردَ الجيش الأوروبّيّ الصليبيّ من القسطنطينية عام (١٢٦١م)، ليُحيي بذلك الإمبراطورية البيزنطيّة من جديد، غير أن سلالة "كومنينيون" واصلت حكم دولتها في "طرابزون" الواقعة شمال شرقي الأناضول.

ولقد قضى السلطان محمد الفاتح على السلطة الاستبداديّة الحاكمة في شبه جزيرة "بيلوبونيز" عقب فتح القسطنطينية؛ إذ كان يرغب في استئصال شأفةِ الآمال الراميةِ لإحياء الإمبراطوريّة البيزنطية، والقضاء على أيّ كيانٍ له علاقةٌ بالبيزنطيين، وكان قسمٌ من كبار النبلاء البيزنطيّين قد لجؤوا بعد فتح القسطنطينية للعيش في "طرابزون"، كما اعتبر الرومان هذه الإمبراطوريّة بمنزلة أملٍ جديدٍ من أجل تأسيسِ الإمبراطوريّة البيزنطيّة.

وكان الرومان يأملون أن تطرد إمبراطورية طرابزون العثمانيّين من المدينة لكي يُحيوا الدولة البيزنطيّة من جديد، كما حدث عام (١٢٦١م)

حيثُ طرد ملك إزنيك الجيوش اللاتينيّة من القسطنطينية وأعاد تأسيس إمبراطوريّة روما الشرقيّة مرّةً أخرى، ولهذا السبب كانوا يقدمون الدعم السرّيّ لأيّ نشاطٍ يُضعف من قوّة العثمانيّين.

مدينة "طرابزون"

خرج السلطان الفاتح على رأس جيشه إلى "طِرَابْزُونْ" عام (١٤٥٦م) كنتيجة للأسباب التي سردناها آنفًا، ووقّع معاهدةً مع إمبراطور الروم في طرابزون "يوانيس الرابع" بعد أن وافقَ هذا الأخير على دفعِ خراجٍ سنويٍّ إلى الدولة العثمانيّة بقيمةِ ثلاثةِ آلافِ قطعةٍ ذهبيّةٍ، لكن هذا الإمبراطور بدأ بالبحث عن تحالفاتٍ جديدةٍ ضدّ العثمانيّين بعدما تيقّن أن خطرهم جدّي للغاية، وفي هذا الإطار، زوّج ابنته بحاكم "إمارة آقْ قُيُونْلُو (*Akkoyunlu*) التركمانية" "أُوزُونْ حسن" عام (١٤٥٨م)، ومنح له المنطقة المجاورة لـ"كَابَادُوكْيَا (*Kapadokya*)" شريطة أن يحميه في حالة تعرُّضه لأيّ خطرٍ، إلا أن الإمبراطور وافته المنيّة في الوقت الذي حاول فيه ضمّ

ملـك جورجيا و"إمارة قَرَمَان" إلى هذا التحالف، وأما الإمبراطور الجديد "كومنينوس" فقد تواصل مـع البابا وأبلغه بأنه لن يتردّد في المشـاركة في أيّ حملةٍ عسـكريةٍ جديـدة ضدّ العثمانيّين، كما بذل جهـودًا كبيرةً لتقوية أسـطوله وزيادةِ عدد جنود جيشـه، ومستندًا لدعم البابا، ولم يكتف بذلك بل تجرّأ وأعلن أنه "لن يدفـع الخراج السنويّ للدولة العثمانية بعد ذلك"، وطلب من "أُوزُونْ حسن" دعمه في هذا الصدد.

وبينمـا كان الجيـش العثمانيّ معسـكرًا في "سِـينُوبْ"، وصل وفدٌ من رسـل "أُوزُونْ حسن" إلى القيادة العسـكريّة العثمانيّة ليطلب من السلطان "إعفاء إمبراطور طرابزون من دفـع الخراج السـنوي، وإعادة المبلـغ الذي كان مـن المفتـرض أن يدفعـه العثمانيون إليه في السـابق ولم يُدفـع"، فردّ عليهم السلطان الفاتح بقوله:

''اذهبـوا أنتم الآن، وأنا سـآتيكم العام المقبل كي أسـدّ ديني بنفسي!''.

وعندمـا اسـتولى "أُوزُونْ حسـن" على بعض القـلاع الحدوديّة بعدما دخل من الحدود الشـرقية للدولة العثمانية، توجّه السـلطان محمد الفاتح بجيشـه سـريعًا جنوبًا حتى وصـل "أَرْزِينْجَـانْ (*Erzincan*)"، وذلك بعدما ظنّ "أُوزُونْ حسـن" أن السـلطان سيتقدّم عبر السـاحل من "سينوب" إلى "طرابزون"، وحينها أصبح "أُوزُونْ حسـن" في موقف لا يُحسـد عليه أمام هذه الحملة العسـكريّة العثمانيّة المباغتة، ذلك لأنه لم يكن قد أعدّ جيشه لدخـول معركـةٍ حربيّة ضدّ الجيش العثماني، وكان قد اعتقد أن السـلطان سيسير بجيشه إلى "طرابزون" مباشرة، وخطّط أن يتعقّبه من الخلف ويشنّ هجومًا ضاغطًا عليه، غير أن خططه في هذا الصدد باءت بالفشل، وعندما

أيقـن أنـه في وضعيّة صعبةٍ للغاية، أرسـل وفدًا ضمّ والدته "سَـارَه خَاتُونْ (*Sara Hatun*)" إلى مقرّ قيادة جيش السـلطان الفاتح طالبًا السـلام، ووافق السـلطان على هـذا الطلب في مقابل التعهّد بعـدم الإغارة على الأراضي العثمانيّة والامتناع عن تقديم الدعم للإمبراطور الروماني في "طرابزون".

تقدّم السلطان محمد الفاتح صوب "طرابزون" بعدما تخلّص من أكبر داعمـي الإمبراطـور "كومنينـوس"، ولم يكن السـلطان يثقُ فـي قبيلة "آقْ قُيُونْلُو" التركمانيّة، ولهذا سمح لوفد رسل "أُوزُونْ حسن" بالمغادرة، لكنّه تحفّظ على والدته قائلًا لها:

> ''يـا أمـاه! امتنـع ابنُـك المبجّل عـن الحضور وحُـرم ثواب الجهاد في سبيل الله، فعلى الأقل ابقَي أنتِ معنا مؤقتًا''.

وتوجّه السـلطان بعد ذلك بجيشـه شـمالًا إلى "طرابزون" في واحدةٍ ربما كانت من أصعب وأشقّ الغزوات التي خرج فيها طيلةَ حياته.

والسبب في ذلك أن الطريق الموصل إلى هذه المدينة لم يكن معبَّدًا، ما اضطرّ الجيش العثماني للسـير بشـكلٍ مسـتمرٍ وسـط الصخور الوعرة والمناطـق الجبليـة، ويصف المـؤرخ "ابن كمـال" تقدّم الجيـش في هذه الغزوة بقوله:

> ''فرغـم وعـورة المنطقة وصعوبة تضاريسـها، إلا أنهم عبروا هذه الجبال الوعرة ومروا منها مرّ السحاب''.

وكان السـلطان يضطرّ طـوال الرحلة للنزول عن جواده والسـير على قدميـه، كمـا تقـدّم الجنود فـي طريقهم بصعوبـةٍ بالغةٍ، ولما رأت "سـارة خاتون" السلطانَ الفاتح متعبًا ويتصبّب عرقًا بسبب هذه المشقّة، قالت له:

obeikandl.com

''يا بني! هل تستحق قلعة طرابزون كلّ هذه المشقّة والتعب بالنسبة لسلطان مثلك أذلّ العديد من الأمراء وأخضعهم لسيطرته، فبدلًا من أن تنام على أسرّة من ريش النعام تخرج في غزوة شاقّة كهذه؟''.

فأجابها السلطان بقوله:

''يا أماه! هل تظنّين أنّني أتحمّل كلّ هذه الصعاب من أجل قلعة طرابزون؟ إن السيف الذي أُمسكه هو سيف الإسلام، وهذه المساعي والأعمال من أجل الدين وفي سبيله، وإذا لم أتكبّد المشقّة في هذا الطريق، أليس من الكذب أن يُطلق عليّ لقب السلطان الغازي؟ ومهما تحمّلتُ من المتاعب من أجل إرضاء الله ﷻ والفوز بثواب الجهاد فهو قليل''.

وصل الأسطول العثماني مدينة "طرابزون" قبل الجيش، وبدأ بقصف قلعتها من البحر، إلا أن الإمبراطور "ديفيد كومنينوس (*David Komnenos*)" بادر إلى المقاومة لاعتقاده أن قلعته لن تتعرّض لحصارٍ عثمانيّ برّيّ بفضل الدعم الذي كان يأمل في الحصول عليه من قبيلة "آقْ قُيُونْلُو" التركمانيّة، لكنه أُصيب بحالة من الدهشة الشديدة حين شاهد جيش السلطان محمد الفاتح أمام قلعته، ولمَّا علم أن والدة "أُوزُونْ حسن" ترافق الجيش العثماني، وأدرك أن قبيلة "آقْ قُيُونْلُو" ليست في صفِّه، ولن تأتي لنجدَته اضطرّ إلى تسليم المدينة شريطةَ حماية عائلته وحياة رعاياه، فأرسله السلطان الفاتح إلى منطقة الروملي ليقيمَ في مكانٍ قريبٍ من مدينة "سيرس (*Serez*)" بعدما خصّص له مبلغًا سنويًّا بقيمة ثلاثمائة ألف درهم.

وبهذه الطريقة انضوت سواحل الأناضول المطلّة على البحر الأسود تحت لواء الدولة العثمانية وذلك بعد انتزاع "أماسرا" من جمهوريّة "جنوة" عام (١٤٥٩م)، وفتح "سينوب" و"طرابزون" عام (١٤٦١م)، واستطاع السلطان محمد الفاتح تمشيطَ المنطقة تمامًا من أذناب الإمبراطورية البيزنطيّة، والقضاء بشكلٍ نهائيٍّ على آمال الأوروبّيّين في إحياء الإمبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة.

مدخل باب السلام في "قصر طوب قابي" والذي أُنشئ في عهد محمد الفاتح

معركة "أَفْلَاق"

لا نرضى عن العدل بديلًا بالظلم
نسعى لإرضاء الله ونطيع أوامره
"عَوْني"[١٤]

تُذَكِّرُ النصوصُ التاريخيّة المدوّنة في القرن الخامس عشر الميلادي اسمي إمارتي "أَفْلَاق وَبُوغْدَانْ" ويُقصَدُ بهما الرقعة الجغرافيّة الواقعة شمال نهر الدانوب والتي تشكّل الجزء الأكبر من دولة "رومانيا" الحالية، ولقد واصلت هاتان الإمارتان وجودهما سياسيًّا تحت حكم البولنديّين تارةً والمجريّين تارةً أخرى، وبدأت "إمارة أَفْلَاقْ" بدفع الضرائب السنويّة للدولة العثمانيّة اعتبارًا من عهد السلطان "بايزيد الأول" الذي بدأ العثمانيّون في سنوات حكمه بالتحوّل إلى قوّةٍ مؤثّرة في منطقة البلقان.

ولقد بدأ أبناء حاكم "أَفْلَاق" بالإقامة كرهائن في القصر العثمانيّ بحكم ما تقتضيه العادة العثمانية، وفي الواقع، كانت هذه العادة من العادات القديمة لسكّان آسيا الوسطى؛ إذ كانت

(١٤) كان السلطان محمد الفاتح يكتب الشعر باسم مستعار هو "عَوْني"، وهو أوّل السلاطين العثمانيين الذين ألّفوا ديوانًا شعريًّا.

تهـدف في الوقت نفسـه إلى ضمـان ولاء ملوك الـدول التابعة لهم وعدم عصيانهم أوامر السلطان.

وكان الأمراء الذين يقيمون في القصر العثماني كرهائن يتدرّبون على فنون الإدارة والزعامة برفقة أبناء السلطان من أجل إعدادهم لقيادة بلدانهم في المستقبل، وقد سعت الإدارة العثمانية مستغلّةً هذه العادة إلى محاولة تشـكيلِ شخصيّة ملوك المسـتقبل الذين يتبعونها في سنّ صغيرةٍ، وضمانِ انصياعهـم وولائهم للدولـة مبكّرًا، وكان هذا التطبيق يسـهّل على الدولة العثمانيّـة تخمين ردود الأفعال التي مـن الممكن أن يُبديها هؤلاء الملوك الخاضعون لسـيطرتها في مواجهة مسـتجدّات الأوضاع، وتطوير أساليب سياسية بحسب الظروف، أو اتّخاذ التدابير اللازمة عند الحاجة.

كان ابنـا ملك "أَفْلَاقْ" التابـع للدولة العثمانية "فلاد (*Vlad*)" و"رادول (*Radul*)" قـد التحقا بالقصر العثماني في "أَدِرْنَه" بينما كان "فلاد" في عمر الثاني عشر و"رادول" في السادسة من عمره، وتلقّى هذان الأميران العلومَ المختلفـةَ من أسـاتذة القصر مـع "الأمير محمد" في عهد السـلطان "مراد الثانـي"، ولمـا مـات أبوهما، عيّن السـلطانُ محمد الفاتحُ الشـقيقَ الأكبرَ "فلاد" حاكمًا على "إمارة أَفْلَاق" عام (١٤٥٦م).

ولقد أطلقت المصادر التاريخية العثمانية على "فلاد" لقب "المخزوق"، فيما أطلق عليه "الأُلَاهِيُّون"[١٥] لقب "الجلّاد"، بينما سمّاه المجريّون باسم "دراكولا (الشيطان)".

وكان "فلاد الثالث" يمتلك شخصيّةً حادّةَ الذكاء، وكان شجاعًا مقدامًا،

(١٥) هم قومٌ كانوا يقطنون ويتواجدون في رومانيا ومقدونيا.

واستطاع فرض نفسه على الساحة خلال فترةٍ قصيرةٍ بفضلِ صِفات القيادة والزعامة التي تمتّع بها، ولقد ألحق هزيمة بالجيوش البوغدانية، حتى إنه استطاع الانتصار على المجريّين في أكثر من مناسبة، وازدادت ثقتُه بنفسه بالتوازي مع تدعيم موقعه في دولته، وهي الثقة التي حوّلتْهُ في الآونة الأخيرة إلى ظالمٍ يبطش يمنةً ويسرةً.

إن المصادر التاريخية الغربيّة، تتحدّث بإسهابٍ كبيرٍ عن وحشية "فلاد الثالث" وظلمِه.

بدأ "فلاد دراكولا" بنقضِ عهدِهِ مع العثمانيّين والتوقّف عن تنفيذ الواجبات المنوط به أداؤها، وشرع في البحث عن تحالفٍ مع المجريّين ضدّ العثمانيّين، وقد أمر بقطع أيدي وأرجل مبعوثَين عثمانيَّين أُرسلا إليه ويُدعيا "جَاكِرْجِي (*Çakırcı*) حمزة باشا" و"يونس بك"، ثم عُلِّقا على الخازوق، غير أنه عامل "حمزة باشا" معاملةً خاصّة لرتبة الباشاوية التي يتمتّع بها، وأجلسه على خازوق أكبر من ذلك الذي أجلس عليه صاحبه!

عقب ذلك قام بأعمال السلب والنهب في منطقة "دُوبْرُوجَا (*Dobruca*)" وشمالي "بلغاريا"، حتى إنه امتدح نفسه في خطاب أرسله إلى ملك المجر "ماتياس كورفين (*Matias Corvin*)" ابن "يانوش هونيادي" بأنه قتل أربعةً وعشرين ألف شخص في "بلغاريا".

ولقد عرض حكّام بوغدان التحالفَ مع السلطان الفاتح بعدما ضاقت بهم سياسات "دراكولا" ذرعًا، فخرج السلطان محمد الفاتح في غزوة عام (١٤٦٢م) لردع "فلاد المخزوق" الذي عاثَ في الأرض فسادًا وصار كابوسًا يقضّ مضاجعَ سكّان المنطقة بأسرها، وكان هذا الأخير

يخشى من الدخول في معركة ميدانيّة أمام القوّات العثمانيّة، فأقدم على فعل متهوّر؛ إذ شنّ هجومًا ليليًّا مباغتًا على مقرّ قيادة الجيش العثمانيّ وحاول قتل السلطان، إلا أن محاولته باءت بالفشل، وخسر في هذا الهجوم عددًا كبيرًا من قوّاته، ومن ثمّ اضطرّ للهرب إلى المجر، لكن ملك المجر "ماتياس كورفين" لم يكن يرغب في إفساد علاقاته مع الدولة العثمانيّة، ولهذا أمر بالقبض على "فلاد" وحبسه، وأعلن السلطان بعد هذه الواقعة "رادول" شقيق "فلاد" ملكًا على أَفْلَاق، لتدخل هذه المنطقة ضمن الولايات الخاضعة للدولة العثمانيّة.

وقد جثا "فلاد" على "الأَفْلَاق" كالكابوس من جديد بعد هروبه من السجن أو إطلاق المجريّين سراحه عقب وفاة "رادول" -بشكل طبيعي- الذي حكم "الأَفْلَاق" مدّة عشر سنوات دون أيّة مشاكل، وقد ألقى مغاوير قوّات القائد العثماني "ميخائيل أوغلو" القبض على "فلاد" بالقرب من "بوخارست"، ثم قتلوه، وقطعوا رأسه وطافوا به مدن الروملي وبلداته من أجل الإعلان عن النصر من جهة، وطمأنةِ سكّان المنطقة من جهةٍ أخرى، ولقد أعلن العثمانيّون بذلك تخلّصهم إلى الأبد من "دراكولا" الذي شكّل كابوسًا مؤرّقًا لسكّان المنطقة، وصار مصدر إلهامٍ لأفلام الرعب في العصر الحديث.

ولقد شعرَ السكّان المحليّون براحةٍ كبيرةٍ بعدما نما إلى أسماعهم نبأُ مقتل هذا الطاغية؛ وعليه، فقد بدأ العهد العثمانيّ في "أَفْلَاق"، والذي استمرّ وسط أجواءٍ من الاستقرار والأمن حتى انفصالها عن الدولة العثمانيّة بعد معاهدة "برلين" عام (١٨٧٧م).

رقيب من القوات الإنكشارية

obeikandl.com

فتح "البُوسْنَة" و"الهَرْسَكْ"

من المهارة أن تبني مدينةً
تُسعد قلوبَ الرعايا
"عَوْنِي"

أدار السلطان محمد الفاتح في السنوات التي تلت فتح القسطنطينية أنشطته العسكريّة في منطقة الروملي من ناحية، ومن ناحية أخرى وضعَ نصب عينيه السيطرة على مضيق الدردنيل والجزر الواقعة بالقرب من سواحل الأناضول، وفي هذا الإطار، خضعت للسيطرة العثمانية جزر "سماء دِيرَكْ (*Semadirek*)" و"تَاشُوزْ (*Taşoz*)" و"إِمْرُوزْ (*İmroz*)" و"لِيمْنِي (*Limni*)" و"مِيدِلّي (*Midilli*)" فيما بين عامي (١٤٥٤-١٤٥٩م). وعليه، فقد ازدادت قوّةُ العثمانيّين في بحر "إِيجَه"، واستطاعوا تأمين سواحل الأناضول التابعة لدولتهم، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن جزيرة "ميدلّي" على سبيل المثال تبعد اثني عشر كيلو مترًا فقط عن سواحل الأناضول، ندرك وقتها جيّدًا كيف

obeikandl.com

أن السيطرةَ على هذه الجزر شكّلت ضرورةً ملحّةً للدولة العثمانيّة، وقد رغب السلطان الفاتح في تأمين عاصمته الجديدة عبر إنشاء قلعتين حملتا اسم "القلعة السلطانية" و"كِيلِيتْ بَحْر (*Kilit Bahir*)" على ضفّتي أضيق منطقة في مضيق الدردنيل، كما صارت إسطنبول أكثر أمنًا وتحصينًا بفضل وجود قلعتي الأناضول والروملي على كِلا شطرَي مضيق البوسفور الذي يقسِمها إلى قسمين.

وضع السلطان الفاتح مسألةَ توحيدِ جميع البلدان الواقعة جنوب نهر الدانوب تحت سيطرتِهِ كهدفٍ أساسيٍّ سعى لتحقيقِه في منطقة البلقان، وشعر بأن الحرب مع البندقية تقترب مع مرور الوقت، فتبادر إلى ذهنه ضرورة الاستيلاء على "البُوسْنَة" من أجل الضغط على البندقيّة من داخل الأراضي الأوروبّيّة، وكانت "البُوسْنَة" من الممكن أن تتسبّب في مشاكل جمّة للدولة العثمانيّة بسبب عداوتها لها خلال معركة قد تندلع ضدّ البندقية؛ وقد تأثّرت مصالح جمهوريّة البندقيّة التجاريّة في الشرق مع فتح القسطنطينية على أيدي العثمانيّين، كما أن سقوط شبه جزيرة "بيلوبونيز" أيضًا في أيديهم أزعجت البندقيّة كثيرًا، وقد شعر حكام "البُوسْنَة" و"الهَرْسَكْ" بأن الأمور تسير في طريقها إلى نشوب حربٍ مع العثمانيّين، فبدؤوا بطلب الدعم من المجر والبندقيّة لمواجهة الأتراك.

وعندما مات ملك الصرب "لازر" عام (١٤٥٨م)، طالَبَ ملك "البُوسْنَة" الكاثوليكي "ستيفان توماسفيتتش (*Stephan Tomaseviç*)" -المتزوّج من ابنة ملك صربيا- بحقّه في الأراضي الصربيّة، كما أنّه بدأ بالتراخي عن دفع الخراج السنويّ للدولة العثمانيّة، وكان يحرّضه

كلٌّ من البابا والبندقيّة والمجر، ويحصل على وعود منهم بالدعم في مواجهة العثمانيّين، ومن ناحيةٍ أخرى، شهدت "البُوسْنَة" خلافات شديدةً بين الشعب والعائلة المالكة الكاثوليكية، وقد تلقّى الكاثوليك الدعمَ من المجريين ومن البابا ملكَ "البُوسْنَة" بشكلٍ طبيعيٍّ لاتّباعهم المذهب ذاته، غير أن الشعب البوجوميليّ كان يقاوم الضغوط الممارسَة عليه، ويكنّ حقدًا وكراهية للملك الذي يحكمه، وصارت أراضي "البُوسْنَة" منفتحةً على الدخول تحت سيطرة الدولة العثمانيّة لما انتشر بين شعوب تلك المنطقة عن أن العثمانيّين جلبوا معهم إلى البلدان التي فتحوها السلام والطمأنينةَ والاستقرار والأمن على الأرواح والممتلكات، وكان ملك كرواتيا "ستيفان فوكتشيتش (*Stephan Vukçiç*)" قد أعلن تبعيّته للدولة العثمانية قبل ذلك التاريخ عقب فتح القسطنطينية في خطاب أرسله إلى السلطان محمد الفاتح نعت نفسه فيه بقوله:

> ''حاكم كرواتيا بلطف الله وكرم السلطان الإمبراطور محمد الفاتح الحاكم المفخّم''.

وسيطر العثمانيّون بعد ذلك على كافّة أراضي صربيا عام (١٤٥٩م)، ورغبوا في فتح "البُوسْنَة" و"الهَرْسَكْ" أيضًا من أجل القضاء على سطوة حكّام البندقيّة والمجر في منطقة وسط أوروبا.

أرسل السلطان محمد الفاتح -بينما كان في حملةٍ عسكريّةٍ خرجها لمواجهة حاكم "أَفْلَاق" عام (١٤٦٢م)- رسولًا إلى ملك "البُوسْنَة" لمطالبته بسداد الضرائب المتراكمة عليه، وعندما وصله الرسول؛ اصطحبه ملك "البُوسْنَة" إلى خزانة دولته وقال له:

''إن النقـود جاهـزةٌ كمـا تـرى، لكنـي لا أنوي إرسـالها إلى سـلطانك، ذلـك لأنه يبدو وكأنّـه قرّر الدخول فـي حرب ضدّي، وعليـه، فأنـا بحاجـة إلى هذا المال كـي أتمكّنَ مـن محاربته وأن أعيش في رغدٍ إن اضطررْت لترك بلدي''.

ثم أمر الحراس بسجنه.

وقد بادر الجيش العثماني لدخول "البُوسْنَة" وهو في طريق عودته من غزوة أَفْلَاق، فعلِم ملكُها "توماسـفيتش (*Tomaseviç*)" هذه الأنباء، وحينها اضطـرّ للاختبـاء بعدما لم يتمكّـن من الحصول على الدعـم المأمول من المجر والبندقية، فلاذ بالفرار أوّلًا إلى قلعة "يَايْجَا (*Yayça*)"، ثم بعد ذلك إلـى قلعـة "سُـوكُولْ (*Sokol*)"، وأخيرًا إلى قلعة "كِيلُـوج (*Kiloç*)"، إلا أنه طلب الأمان على نفسه واستسلم في نهاية المطاف.

وعقِب فتحِ "البُوسْـنَة"، أرسل السلطان صدرَه الأعظم "محمود باشا" إلى "الهَرْسَـكْ"، وقد عرض ملك "الهَرْسَـكْ" التبعيّة إلى الدولة العثمانيّة، فأمـر السـلطان بمنحـه بعضَ المناطـق من دولتـه يديرها بنفسـه، وتلحق المناطـق الباقية مباشـرةً لتدار من قبل الدولة العثمانيّة، ولقد أرسـل ملك "البُوسْـنَة" ابنـه الأصغـر إلى عاصمـة العثمانيّين ليتربّى هنـاك كرهينةٍ كما جرت العادة.

وقـد اعتنـقَ هذا الأمير الإسـلام فيما بعد، فاتّخذ لقب "هرسـك زاده أحمد باشا"، وتقلّد فيما بعد منصب الصدارة العظمى في الدولة العثمانية، وقد مُنحت دولة "البُوسْنَة" و"الهَرْسَكْ" لقب الولاية كما فعل مـع "صربيا" قبـل ذلك، ثـم أُلحقت بإمـارة الرُّومَلي بعدمـا أعيد تشـكيلها وفق النظام

الإداري العثمانـيّ، وبهـذه الطريقـة صارت الدولـة العثمانية كالخنجر في حلق المجر والبندقيّة بدخولها وسط الأراضي التابعة لدولتهما.

أراد ملك المجر انتزاع "البُوسْنَة" من أيدي العثمانيين عام (١٤٦٤م)، غيـر أن القائـد العثمانـي "ميخائيل أوغلو علي بك" اسـتطاع دحرَ الجيش المجريّ، وطارده حتى نهر "سافا"، وأسر معظم جنوده، وكان من المفلت للانتباه في هذه المعركة أن ينهزمَ جيش المجر العظيم أمام حاكم سـنجق (لواء) تركي، وحاول ملك المجر الاستيلاء على "البُوسْنَة" عامي (١٤٧١-١٤٧٩م)، إلا أنـه اضطرّ للعودة من حيـث أتى بعد تلقّيه هزائم متتالية من القوّات العثمانيّة.

كان البوسـنيّون يعتنقـون المذهـب البوجوميلـي النصراني الذي ظهر في بلغاريا في القرن العاشـر الميلادي، وكانوا يؤمنون بالعديد من العقائد المختلفة عن الكنيستَين الكاثوليكية والأرثوذكسية، وينظرون إلى الكنائس التابعـة لهذيـن المذهبيـن على أنهـا "معابد للشـيطان"، ويؤمـن أتباع هذا المذهـب بوحـدةِ الله، على عكس مذهـب التثليث المتّبـع لـدى الكنائس الأخرى، ويعتقد بأن سيدنا عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله، وهم يعتبرون أن المصـدر الأساسـي والوحيـد للدِّين هو الإنجيـل، ويرفضون وجهات النظـر الخاصّـة بالكنائـس النصرانية الرسـمية، كما أنهـم يعارضون طبقة الرهبان، ويصفون الحياةَ المترَفَةَ وامتلاكَ الأملاكِ الخاصّة وشرب الخمر بالأشياء الخاطئة.

ولقـد أثّـرت حرّيّة العقيدة التـي أقرّتها الدولة العثمانيّة في "البُوسْـنَة" فـي السـكان المحلّيّين كثيـرًا؛ إذ كانوا قد ضجروا من مسـاعي المجريّين

الراميـة إلى إجبارهـم على اتّباع المذهب الكاثوليكـي، وحينها أدركوا أن تصرّفـات الأتـراك الحميـدةَ نابعـةٌ من دينهم الإسـلامي، وهو مـا دفعهم لاعتنـاق الإسـلام بإرادتهـم الحـرّة دون إجبارٍ أو إكراهٍ مـن أحد، كما هو الحال بالنسبة للشعب الألبانيّ الذي من شعوب شبه جزيرة البلقان.

لقد شـعر السـلطان محمد الفاتح بسـعادةٍ غامِرةٍ لاعتناق البوسـنيّين الدين الإسـلامي، وسـألهم عن مطالبهم، فأجابوه بأنهم يرغبون في تولّي المهام الخدميّة في الدولة، ومنذ ذلك التاريخ بدأ البوسنيون بتولّي المهام الخدميّة في الجيش والقصر ومختلف مرافق الدولة بشرفٍ ونزاهةٍ.

وتظهر لنا المعاهدة التي منحها السـلطان الفاتح إلى رهبان "البُوسْنَة" موقـف العثمانيّين مـن رجال الدين النصـارى واحترامهـم لحريّة العقيدة لأصحاب الأديان المختلفة، بحيث أراد السلطان أن يعتنق شعوب البلقان الإسلام بإرادتهم الحرّة من خلال إظهار سماحة الإسلام ومبادئه.

وجاء في نص المعاهدة ما يلي:

"إن العـون والمدد من الله! أنا السـلطان محمد بن السـلطان مراد!

ليعلـم جميـع أفراد الشـعب أنني أمرت ببعـض الامتيازات للرهبان الحاملين لهذا الفرمان، وقررت الآتي:

يلـزم علـى الجميـع عـدم مضايقـة الرهبان السـالف ذكرهم وكنائسـهم أو منعهـم مـن ممارسـة شـعائرهم الدينيـة، وليُمنحوا الأمن والأمان سواء للمقيمين منهم في أراضي دولتي أو الهاربين خارجهـا حتـى يعودوا إلـى بلادنا ثانيةً ويقيموا بهـا في أجواءٍ من الطمأنينة والاستقرار ويعودوا إلى كنائسهم، ولن يتدخّل أحدٌ سواء

أنا أو وزرائي أو أيّ فردٍ من أفراد شعبي في أمورهم أو يلحق بهم أيّ أذى، وهـذا الحكم سـارٍ عليهم وعلـى أرواحهم وممتلكاتهم وكنائسهم والأشخاص الذين يستضيفونهم من الخارج.

وأقسم بالله قسمًا عظيمًا أنه لن يقدم أحدٌ على مخالفة الأوامر التي سـردتها عاليه طالما ظلّ الرهبان المذكورون في خدمتي ولم يعصوا أوامري، وذلك بحقّ ربّنا خالق السماوات والأرض، وبحقّ نبينـا الكريم ﷺ، وبحقّ المصاحف السـبعة، وبحـق الأنبياء المائة والأربعة والعشرين ألفًا، وبحقّ سيفي".

لقد أطلق الأتراك لقب "البُوشْنَاقْ" على سكان "البُوسْنَة" و"الهَرْسَكْ" من المسـلمين، ودخلت العديد من الكلمات من اللغات التركية والعربية والفارسـية على اللغة البوسـنية التي تُعتبر إحدى لهجات اللغة الكرواتية، وظلّت "البُوسْـنَة" خاضعةً لحكـم العثمانيّين حتى انضمامها للإمبراطورية النمساويّة المجريّة عام (١٩٠٩م).

obeikandl.com

obeikandl.com

الحرب الكبرى ضدّ التحالف الصليبيّ الثالث

وقّعت الدولة العثمانيّة معاهدةً تجاريّةً في عام (١٤٥٤م) مع جمهورية البندقيّة التي كانت تُعتبر واحدةً من أقوى الدول المطلّة على البحر الأبيض المتوسّط في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان البندقيّون في ذلك الوقت منهمكين في صراعات ضدّ أعدائهم في أوروبّا، ولهذا سعوا لانتهاج سياسةٍ سلميّةٍ مع الأتراك من أجل حماية مكتسباتهم الاقتصاديّة والتجاريّة في الشرق، ومن جهته أراد السلطان محمد الفاتح من خلال هذه الاتفاقيّة التجارية منْع جمهورية البندقية القويّة من الانضمام للحملات الصليبيّة التي تُخطِّط أوروبا لتنظيمِها ضدّ دولته.

غير أن فرض العثمانيّين سيطرتهم على بعض مناطق نفوذ البندقيّة في بحر "إيجَه" وشبه جزيرة البلقان في السنوات اللاحقة؛ أفضى إلى تغير سياسةِ جمهورية البندقية القائمة بين الطرفين، فلقد أصيبت جمهورية البندقية بالقلق الكبير إزاء

مبادرة السلطان الفاتح إلى الاستيلاء على بعض الجزر في بحر "إيجَه"، ثم فتحه للجزء الأكبر من شبه جزيرة "بيلوبونيز"، وفرض سيطرته في نهاية المطاف على "البُوسْنَة" و"الهَرْسَكْ"، وهو ما دفعها إلى البحث عن الدخول في تحالفاتٍ ضدّ الدولة العثمانيّة التي تكبر يومًا بعد يوم.

في نهاية المطاف وُقّعت معاهدة بتحفيز من البابا "بيوس الثاني" بين المجريّين الذين يملكون أقوى جيشٍ برّيٍّ في أوروبا من جهةٍ، ومع حاكم ألبانيا "إسكندر بك" والبندقيّة من جهة أخرى للتحالف ضدَّ العثمانيّين، ذلك لأن بسط العثمانيين سيطرتهم على منطقة البلقان حجّم نفوذ المجريّين هناك، ودفعهم للتقهقُر إلى وراء نهر الدانوب، وأما "إسكندر بك" فكان يرغب في أن يكون ملِكًا مستقلًّا على ألبانيا، وكانت الدول الداعمة لهذا التحالف من أوروبا كلٌّ من "بولندا" و"ألمانيا" و"أراجون" و"قشتالة" و"نابولي" و"قبرص" و"رودس" و"فيرارا" و"مودينا" و"سفويا" و"سيينا" و"لوكا" و"بيزا" و"مانتوفا" و"ترينتو" و"جنوة"، ومن آسيا قبائل "بني قَرَمَان" و"بني آق قيون" التركمانية وجورجيا.

وقد وضع الحلفاء خططَهم حول كيفيّة تقسيم أراضي الدولة العثمانيّة في حالة انتصارهم في هذه المعركة على النحو التالي:

سوف تستولي البندقيّة على أقاليم "بيلوبونيز" و"أتيكا" و"تيسيليا" و"إيبروس"، و"إسكندر بك" سوف يستولي على "مقدونيا"، وأما "صربيا" و"البُوسْنَة" و"أَفْلَاق" و"بلغاريا" فستستولي عليها المجر، وعلى هذا سوف تؤسّس الدولة البيزنطية من جديد في تراقيا وتكون عاصمتها القسطنطينية (إسطنبول).

وهـو ما يعني أن العثمانيين سـيُطرَدون تمامًـا من أوروبا، وكان حاكمُ قبيلة "آق قيون" التركمانيّة "أُوزُونْ حسـن" سـيهاجم العثمانيّين من ناحية الأناضـول ليقصيهـم من هـذه المنطقـة، أي إن هذا الحلـف (الأوروبي-الآسيوي) رغب في تدمير الدولة العثمانيّة بالكامل.

بـدأ الحلفـاءُ التحرّكَ للقضـاء على الدولـةِ العثمانيّة فـي خريفِ عام (١٤٦٣م) وذلـك بعـد عـودة السـلطان محمد الفاتـح من "البُوسْـنَة" إلى إسطنبول، فشنّت البندقية هجومًا على شبه جزيرة "بيلوبونيز"، فيما هاجمت المجـر "البُوسْـنَة"، وأعلن "إسـكندر بك" تمرّده على الدولـة العثمانيّة في ألبانيا من جديد، وأبحر أسطول البندقية القويّ في توقيتٍ متزامنٍ مـع هذه الهجمات صوب مضيق الدردنيل.

وبهـذه الطريقـة تكون قد بدأت الحـربُ الكبرى التي ستسـتمرّ لمدّة سـتة عشـر عامًا في البلقـان وبحر "إِيجَه" وجزره وشـبه جزيـرة بيلوبونيز والأناضول.

وقد أُمر فرمانٌ باباوي ببدء الحملة الصليبيّة الجديدة بتاريخ الخامس والعشـرين من أكتوبر/تشرين الأول (١٤٦٣م)، وأُعلن رسميًّا أمام شعوب أوروبا وقُرئ على الملأ على النحو التالي:

> ''أنتم أيها الألمان لا تساعدون المجريّين، فحينئذٍ لا تنتظروا أن يمـدّ الفرنسـيّون لكـم يد العون، وأنتـم أيّها الفرنسـيّون إذا لم تسـاعدوا الألمـان، فـلا تأملوا فـي الحصول على دعم الإسـبان، سـيُكال لكـم بالمكيـال الـذي تكيلون بـه، وكما تـرون أن أباطرة إسـطنبول وطرابـزون وملـوك "البُوسْـنَة" وصربيـا وغيرهـم مـن الحكام علمونا ما هي نهاية أن ننتظر ونقف متفرّجين على سقوط

الآخرين، وإن السلطان العثماني محمد الثاني يرغب في إسقاط الإمبراطورية الرومانيّة الغربيّة كما أسقط الإمبراطورية البيزنطية".

وِسام يحمل صورة السلطان محمد الفاتح

هذا إضافةً إلى أن الفاتيكان تعهّد بأن كلّ نصرانيٍّ سينضم إلى الجيش الصليبيّ لمدة ستة أشهر ستُغفر له كافّة ذنوبه، وبدأ الكاردينالات باستخدام الأموال التي جمعها قادةُ أوروبا من وراء الفرمانات البابويّة التي تعِدُ الناس بالجنة والضرائب الاستثنائية التي حُصّلت من أجل الحرب على العثمانيّين، وكانت الإدارة العثمانية تتابع عن كَثَبٍ كافّة الفعاليات السياسيّة التي يمارسها بابا الفاتيكان الذي حرّض هذه الدول ضدّ العثمانيّين وصار مركزًا لتنسيق التحضيرات الخاصّة بالحملة الصليبيّة.

وكان هناك جواسيسُ وعيونٌ عثمانيون ينشطون في أوروبا، ومنحت الدولة العثمانية بعضًا منهم أراضٍ بجانب نهر الدانوب، بحيث كان هؤلاء الجواسيس ينقلون الأخبار باستمرارٍ من أوروبا إلى إسطنبول.

انتصرت الجيوشُ العثمانيّة في المعارك التي بدأت بهجمات الحلفاء عام (١٤٦٣م)، وطُرد المجريّون من "البُوسْنَة" والبندقيون من شبه جزيرة بيلوبونيز في العام التالي، ولم يرق للشعب الأرثوذكسي في البلقان بوجه عام هذه الحملات الصليبيّة التي قادها الكاثوليك، وكان السبب الحقيقيّ وراء هذا الرفض بحسب ما يرويه المؤرخ الألماني "فرانز بانينجر (*Franz Babinger*)" هو:

> ''أن كره الأرثوذكس للكاثوليك كان أكبرَ من خوفهم من الاحتلال العثماني''.

وعرضت الدولة العثمانية على البندقية والمجر توقيعَ معاهدةِ سلام بهدف المراوغة عام (١٤٦٥م) الذي برزت فيه مشكلة قبيلة "بني قرمان" في الأناضول، وهو العام الذي ظهرت فيه أصواتٌ داخل الجيش تتذمّر من الغزوات المتواصلة، بالتزامن مع إصابة السلطان ببعض المشاكل الصحّيّة، غير أن الطرفين لم يتّفقا حول طلباتهما، كما كان متوقّعًا.

وخرج الجيشُ العثمانيّ مجدّدًا في غزوة إلى ألبانيا عام (١٤٦٦-١٤٦٧م)، إلا أنه لم يحقّق النتيجة المرجوّة، وعاد إلى إسطنبول، ظلّت ألبانيا واحدةً من جبهات الحرب الكبرى المفتوحة ضدّ الدولة العثمانية بالتحالف مع القوى الصليبية حتى عام (١٤٧٩م).

لقد اتّخذت الإدارة العثمانية قرارًا بالخروج في غزوة لردع بني قَرَمَان بعدما بدؤوا يشكّلون تهديدًا ملموسًا في الأناضول عام (١٤٦٨م).